الباب الأول

العربية وقانون التطور

١ ـ فى بيئتها الأولى بالعصر الجاهلى

٢ ـ مع حركة الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة

٣ ـ الفصحى ولهجاتها الإقليمية فى الأقطار المتعربة .

٤ ـ مع النهضة العلمية فى عصر الحضارة الإسلامية .

٥ ـ مع حركة الإحياء فى الغرب الأوربى .

العربيّة فى بيئتها الأولى

إذا كان العامل الدينى هو الذى يعطى التفسير التاريخى لانتشار العربية ، فإن هذا لا يعنى أنها لم تكن فى ذاتها صالحة للبقاء . وإلا فقد كان حسبها أن تبقى لغة دينية . وتترك للغات الأصلية للشعوب المسلمة . مجال الحياة العامة .

من حيث كانت الجزيرة العربية هى مهد اللغة المشتركة التى اتخذتها شعوب أمتنا لساناً قومياً لها بعد أن أسلمت .

يكون من المجدى أن نلتفت إلى الأصل المشترك فى لغة العرب قبل أن تخرج من بلادهم ، ثم بعد أن انتشرت مع الفتوح الإسلامية من المشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الإفريقى .

* * *

وإذا كان العامل الدينى هو الذى يعطى التفسير التاريخى لانتشار العربية فإن هذا لا يعنى أنها لم تكن فى ذاتها صالحة للبقاء ، وإلا فقد كان من المتصور أن تبقى لغة دينية ، وتترك للغات الأصلية لشعوب المنطقة مجال الحياة العامة ، على نحو ما حدث للغة القبطية التى ظلت لغة الكنيسة المصرية لمن اختاروا البقاء على نصرانيتهم من أهل مصر ، دون أن تتجاوز هذا النطاق الدينى المحدود إلى المجال العام .

* * *

وليس من الصحيح إطلاقاً ، أن اللغة العربية اعتمدت فى انتشارها على السلطة الحاكمة . كما تصور بعض الدارسين فيما سموه « سلطان اللغة الغازية » ويعنون به القوة المستمدة من السلطان السياسى . « فكلما كان للغازى سلطانه الذى لا يُرد ، كان للغته هى الأخرى سلطان لا يرد . والشعوب المغلوبة تسعى دائماً إلى التقرب من الشعوب الغالبة تجاملها فى كل شىء وتحاكيها فى كل شىء ، وليست ثمة وسيلة للتقرب خير من اللغة . من أجل ذلك كانت الشعوب المغلوبة أسرع إلى التحلل من لغتها والدخول فى لغة الغالب »[1] .

لقد غزت المنطقةَ لغاتٌ أخرى قبل الإسلام ، مؤيَّدةً بالسلطان

---

(١) من مقدمة إبراهيم الابيارى لكتاب (القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب ، لابن أبى السرور الشافعى) — وزارة الثقافة بمصر .

السياسى ، لكن الشعوب المغلوبة رفضتها متشبثة بقديمها محافظة على تراثها . فانحصرت لغات الغزاة الغالبين فى الدواوين والرسميات ، لم تتجاوزها من قريب أو بعيد إلى اللغة القومية .

وفى عصر الاستعمار الحديث ، نرى الدول الغازية كان لها سلطان مسيطر على أقطار الوطن العربى ، وقد حاولت جهدها أن تفرض عليها « سلطان اللغات الغازية » فلم تبادر شعوبنا المغلوبة إلى التقرب من الغزاة الغالبين ومجاملتهم ومحاكاتهم فى كل شىء ، ولم تسع دائماً إلى التحلل من لغتها العربية . بل ناضلت عن وجودها الوطنى ضد المسخ والسلخ . وعن لسانها القومى ضد الغزو ، فانحصرت اللغات الغازية فى الدواوين ودور التعليم الخاضعة للغالب . وبقيت شعوبنا بمعزل عنها . ترفضها فى عناد وإصرار [1] . فيما عدا قلة من المثقفين المتفرنجين . الذين استعاروا لغات الغزاة بالقهر والسلطة . أو عن طواعية تقليد ومحاكاة وتقرب إلى الحكام . وهذه القلة من المتفرنجين لا يمكن أن تمثل وجدان الشعب وضميره ، ولا يجوز أن نحكم بسلوكها على الملايين من جماهير الشعوب العربية التى ما نعرف أنها تخلت قط عن لغتها القومية ، ولا سعت إلى التقرب من الغزاة ومحاكاتهم فأسرعت إلى التحلل من لغتها ودخلت فى لغة الغالب !

يصدق هذا على أقطار المشرق العربى . كما يصدق على أقطار المغرب التى امتحنت بأضرى غزو لغوى ، واجهته الشعوب بالرفض والسخط والإنكار ، وقاومت المسخ والسلخ فخاضت معارك التحرير .

وهذه قضية نعرض لها فيما بعد ، بما يلفتكم إلى ما ينبغى لكم من حذر

---

(١) انظر مثلا كتاب (الهلينية فى مصر لهارولد بل) ص ١٨ من الترجمة العربية للدكتور زكى على ط ١٩٥٩ .

واقرأ معه كتاب الدكتور عبد الحميد عابدين (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية فى مصر ، قبل الإسلام وبعده) ص ٣٢ ، ٩٥ - ط أولى ١٩٦٤ .

فى التسليم المهين لكرامتكم العقلية ، بدعاوى راجت وذاعت حتى بدت من البديهيات الضرورية والحقائق المقررة ! .

* * *

ونعود فنقول : لولا أن اللغة العربية فى ذاتها كانت صالحة للبقاء ، لانحصرت فى النطاق الدينى للشعوب المسلمة ؛ أو فى المجال الرسمى خضوعاً للسلطة السياسية .

والعربية التى وصلت إلينا فى تراث الجاهلية المعروفة لنا ، ومداه قرنان قبل الإسلام ، قد مرت فى قديمها بمراحل تهذيب وصقل وتصفية وانتقاء ، حتى بلغت مستوى عالياً من دقة الدلالة وإحكام الصياغة والتعبير ، استطاع معه العلماء من عصر التدوين وما بعده ، أن يستخلصوا من تراث الفصحى ، قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والوضع ، وضوابط العروض ، وأحكام البلاغة وأساليب البيان .

لقد وصلت إلينا من قديم جاهليتها ، بعد أن أهملت الحوشىّ والغريب والثقيل ، وما تنافر فى حروف اللفظ أو كلمات الجملة ، وهذبت صيغها بالإعلال والإبدال والقلب والإدغام والحذف[1] .

واستقرت على ضوابطَ للتأنيث والتذكير ، وللإفراد والتثنية والجمع ، وميزت المعلوم من المجهول ، والمعرفة من النكرة ، وتصرفت فى المادة اللغوية بصيغ مطردة لكل منها دلالتها المحددة ، وتصرفت فى الفعل لضبط الزمن تحديداً للماضى المطلق والقريب والحاضر ، والمستقبل القريب والبعيد والمطلق ، واستخدمت الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة بدقة وإحكام ، للمتكلم والمخاطب والغائب ، مفرداً ومثنى وجمعاً .

---

(١) انظر : سر الفصاحة للخفاجى ، والمزهر للسيوطى (النوع التاسع) والعربية الفصحى لهنرى فليش : ٤٧ .

كما حكمت المعانى بصيغ المشتقات . ونسق الألفاظ وترتيبها فى الجمل ، وسياق العبارة ، وعلامات الإعراب .

وتوسعت فى الدلالات المجازية لكى تنمو وتلبى حاجات الحياة ، فنقلت الألفاظ من الاستعمال الحسى إلى الاستعمال المجازى والاصطلاحى .

وكذلك تطورت الأساليب العربية من قديم ، فخرجت عن أصل الوضع اللغوى إلى معان مجازية وأساليب بلاغية لملاحظ فنية جمالية . كالذى تعرفون من خروج أساليب الخبر من دلالتها الأصلية إلى الدعاء والاسترحام والتفجع ، وأساليب الأمر والنهى والاستفهام عن معانيها اللغوية الأولى ، إلى الزجر والتقرير والإلزام أو الجحد والإنكار . والعدول فى التعبير عن أصل استعماله اللغوى ، بالاستعارة والمجاز والكناية .

ووصل إلينا الشعر الجاهلى بعد أن مر بمراحل طفولته ونموه ، محكم الإيقاع متسق النغم مرهف الحس . تمضى القصيدة منه حتى تجاوز مائة بيت عدًّا ، دون خلل فى نسق نظمه وضوابط إيقاعه وموسيقاه . . .

وكل هذا تعرفونه فيما صنف علماء السلف من علوم العربية ، وما أضاف المحدثون من دراسات لأسرار العربية فى الدلالات والأصوات وموسيقا الشعر وفن القول .

وما يزال كثير من أسرارها محجوباً عنا ، وما يزال الميدان يتسع لجديد مما غاب عنا من هذه الأسرار . أقول هذا وأنا أشتغل منذ سنين بخدمة النص القرآنى ، فألمح من أسرار دلالات الألفاظ وأساليب البيان ما ظل محجوباً عنا حتى اليوم . وأعتقد أن أجيالاً تأتى بعدنا ، تهتدى إلى ما لم نصل إليه نحن من حس العربية الدقيق المرهف ، وبيانها الذى وقفنا به عند قواعد علماء الصنعة .

* * *

وحددت العربية من قديم موقفها من الدخيل : لم ترفضه رفضاً باتاً في جمود وعناد ، ولم تطلقه دون قيد يغزوها ويمسخ أصالتها .

فبقدر ما توسعت في الاشتقاق والمجاز ، ضيقت باب الأخذ من الدخيل ، صوناً للسانها ، فاستغنت إلى أقصى المدى ، بتطويع الألفاظ الفصحى لكي تؤدي المعاني الجديدة على وجه التجوز ، ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلا عند الضرورة القصوى ، مع إخضاعه للصيغ العربية إما بالإلحاق ، أو بتغيير نطقه إشعاراً بتعريبه .

وقد استطاع علماء اللغة من عصر التدوين أن يستخلصوا قواعد لمعرفة المعرب[1] ، تشهد بأن الأمر لم يترك لفوضى عشوائية ، بل خضع لقواعد كانت العربية تجري عليها فيما تأخذه من اللغات الأخرى[2] .

من هنا جاز لبعض اللغويين أن يرفضوا القول بأن في القرآن ألفاظاً غير عربية . لا يعنون بذلك أن هذه الألفاظ لم تكن في أصولها من لغات رومية أو سريانية أو حبيشة أو فارسية ، ولكنهم يعنون أن العرب عربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ، ثم نزل القرآن الكريم وقد دخلت هذه الحروف في كلام العرب .

* * *

وكان عجيباً حقاً أن يكون للغة بادية في العصر الجاهلي ، ومع العزلة النسبية[3] ، مثل هذه الضوابط والقوانين التي تسامى بها أرقى اللغات

---

(١) اقرأ باب (معرفة المعرب) من مزهر السيوطي : ص ٢٦٨ وما بعدها .

(٢) السيوطي : المزهر ٢٦٩ .

(٣) سبق القول بأن اتصال العربية بلغات الأمم التي خالطتها، لا يمنع القول بالعزلة النسبية التي صانت بها لسانها من الخلط. وهذه العزلة تشتد في المناطق البعيدة عن المخالطة. وكذلك القول في بداوة العربية لا يعني أن العرب كلهم كانوا بداة، ولكن يعني أن مناطق الفصحى التي آثرها علماء اللغة، كانت في الغالب منازل البدو . فضلا عن أن الجزيرة العربية في الجاهلية المعروفة لنا، كانت تعيش =

الحديثة ، فى دقة الدلالة وضوابط التعبير وقوانين التصرف والمجاز . والأخذ والنقل . . .

ومن اللغويين المحدثين ، من يفسر هذا بأنه « كان من حظ القبائل العربية القاطنة فى أصقاع الجزيرة أنها احتفظت بلغتها السامية الأصلية احتفاظاً ظاهراً حتى لم يطرأ عليها شيء كبير من التغير والتبديل ، إذ كانت هذه الأقوام بعيدة عن الأمم الأخرى وفى مأمن من التأثر بحضارتها كما تأثرت بقية الأمم السامية التى سكنت فى الجهات المعمورة . ومن أجل ذلك امتازت اللغة العربية ، لغة تلك القبائل ، عن اللغات السامية الأخرى بزيادة عدد غير قليل من الكلمات والصيغ القديمة »(١).

فهل يتصور عقل أو يقبل منطق . أن تصل العربية إلى هذا المستوى من الدقة والحيوية بمحافظتها على لغة بدائية أولى وكلمات وصيغ قديمة ؟

« إسرائيل ولفنسون » الذى يتصور مثل هذا ويقرره . لا يلبث أن يذهب فى الفقرة التالية مباشرة ، إلى أن المخالطة اللغوية بين العربية ، هذه المنعزلة . وبين لغات أخرى قد وصلت إلى حد الامتزاج « فقد كانت العرب الراحلة تتصل بأمم سورية والعراق من أقدم الأزمنة التاريخية اتصالا متنوع الأسباب ، فقد يكون للغزو وقد يكون للتجارة وتبادل الغلات والمرافق أو لطلب الكلأ والمرعى . ونجم عن ذلك تبادل أدبى وعلمى أيضاً . . . وقد امتزجت قبائل جمة آرامية وعبرية بالعرب فى الجزيرة العربية أو تخومها وتركت فيها آثاراً ظاهرة ، إذ كانت من الوجهة الفكرية أرقى من عرب شمال الجزيرة »(٢).

= عصر بداوة بصفة عامة ، ومظاهر التحضر فى القرى العربية ، لم تخرج بها حينذاك عن عصر الناقة .

انظر كتاب الدكتور ناصر الدين الأسد فى (مصادر الشعر الجاهلى) وقابله على الفصل الموجز لعصر الخنساء ، فى كتابى (الخنساء) ط المعارف سنة ١٩٥٧ .

(١) بنص عبارة « إسرائيل ولفنسون » فى (تاريخ اللغات السامية) ص ١٦٢ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٢٩ .

(٢) المرجع السابق .

ثم ما هذه السامية الأصلية التى يقول إن العربية احتفظت بها ولم يطرأ عليها شيء كبير من التغير والتبديل ؟

أليست هى التى قرر فى أول تأريخه للغات السامية أن « من العسير أن نتخيل ما كانت عليه اللغة السامية الأصلية ومقدار كلماتها ، بل من العبث إطالة البحث فى أمر غامض مجهول نشأ ونما فى عصور سبقت العصور التاريخية ؟ »

ومع ذلك ، فهذه المجهولة الغامضة ، هى ما يزعم هنا أن العربية احتفظت بها !

دعونا إذن من تلك اللغة السامية الأصلية ، البدائية المجهولة التائهة فى ضباب ما قبل التاريخ ، والتى لا يمكن أن نتصور أن العربية التى وصلت إلينا ، قد احتفظت بها من طفولتها الأولى .

فهل كانت العربية تدين برقيها إلى لغات قبائل جمة آرامية وعبرية ، امتزجت بالعرب فى جزيرتهم أو على تخومها ، وكانت من الوجهة الفكرية أرقى من عرب شمال الجزيرة ؟

لا نسأل : فلماذا لم تنتصر الآرامية والعبرية وتفرضا سيادتهما حيث سادت العربية ؟ وإنما نتابع قول « ولفنسون » فى الفقرة التالية ، فنرد به عليه :

« ولكن يجب ألا يبالغ الباحث فى مسألة تأثير الآرامية والعبرية فى العربية الشمالية ، إذ ينبغى أن يحترس من الخطأ فى نسبة بعض الكلمات العربية إلى أخواتها السامية ظنًّا منه أنها منقولة منها ، فقد يوجد عدد كبير من الألفاظ له رنة آرامية أو عبرية وهو فى الواقع كان يستعمل عند العرب قبل أن يحدث الاتصال بين هذه اللغات . ثم إذا علمنا أن شمال الجزيرة قد امتزج بعناصر كثيرة من الآراميين والعبريين فقد يحدث أن تتغلب الصيغة الجديدة فى نطق كثير من الكلمات »[1].

والأمر بعد ، ليس مجرد كلمات فى هذه اللغة أو تلك ، وإنما القضية المعروضة للنظر ، هى قضية المستوى العالى الذى بلغته العربية فى العصر

---

(١) تاريخ اللغات السامية : ص ١٦٣ .

الجاهلى المعروف لنا . من دقة الدلالة ورفاهة الحس ولطف الملحظ ، واطراد ضوابطها فى التصرف والاشتقاق ، وإحكامها فى الصياغة والأداء . وملاحظها الفنية فى الأساليب .

وما تزال القضية تنتظر رأياً مقنعاً ، يشق علينا أن نصل إليه ، لأن مراحل طفولة هذه العربية ونموها وتطورها قد غابت عنا . ويطمئن بعض علماء فقه اللغة من مستشرق الألمان ، إلى القول بأن العربية فى هذا التطور كانت تعتمد على ما يسمونه التطور الداخلى . يعنون به أنه يأتيها من ذاتها لا من خارج .

وأيًّا ما كان الأمر ، فهذه العربية التى تلقانا فى أخريات الجاهلية ، على ماعرفتم من مستواها ، كانت فى تلك المرحلة المعروفة لنا تاريخاً وتراثاً تمارس حركة تطور هامة تتجه إلى استصفاء لغة مشتركة شبه رسمية ، تلتقى عندها القبائل العربية فيما يجاوز نطاق القبيلة . تلك كانت لغة قريش ، لا نعنى بها لسان أجدادهم ، وإنما نعنى هذه اللغة المختارة التى اتصلت بلغات القبائل واستصفت منها ما رأته ملائماً .

ذلك أن قريشاً بحكم مركزها فى العاصمة الدينية والتجارية الكبرى للعرب ، كانت تتلقى وفود القبائل فى موسم الحج الذى كان فى الوقت نفسه موسماً للتبادل التجارى واللغوى . فأتاح لها هذا المركز نفوذاً لغويًّا ، أيده تفتحُها لتقبل ما تستصفى من لغات سائر القبائل .

نقل « ابن فارس » فى كتابه (الصاحبى ، فى فقه اللغة) :

« أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم ، أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة . .

« كانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى

كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طُبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب » .

ونقل السيوطى فى (المزهر) :

« وقال الفارابى فى أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما فى النفس » .

وهذه الخطوة الهامة نحو اختيار لغة مشتركة ، كانت لها دعامة من اتصال وثيق بين لغات القبائل ، بدأ من قديم بهجرة القحطانية إلى الشمال وغلبة العدنانية ، ثم قواه تلاقى القبائل فى المواسم الدينية والتجارية والرحلات ، وما يتبع ذلك كله من اتصال ومخالطة .

ولم تكن لغات قبائل الجنوب فى اليمن وحضرموت ، أو القبائل الضاربة فى تهامة وساحل البحر الأحمر وفى المنطقة الواقعية بين نجران والجوف اليمنى ، بمعزل عن الاتصال بلغة الحجاز ، بل كانت هناك علاقات متواصلة بينها لا يعوقها اختلاف اللهجات[1] .

* * *

هل وصل هذا الاتصال بين لغات القبائل على الزمن الطويل فى الجاهلية إلى أن صارت قبل ظهور الإسلام لغة واحدة ، ابتلعت كل اللغات الأخرى أو جمعت بينها فى لغة مختلطة هى مزيج من كل اللغات التى انهزمت وبادت ؟

هل كان كما تصور بعضهم : « أن الواحدة من اللجهات كانت تبتلع الأخرى أولا ثم تتكون من الاثنتين لهجة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، وهذه اللهجات الجديدة تمتزج بأخرى ، وهكذا ظل هذا التدرج ينتقل فى أزمنة طويلة فى أثناء الجاهلية حتى ظهر الإسلام » ؟

---

(١) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربى — ص ٢٧ ، ٢٨ من الترجمة العربية للدكتور إبراهيم الكيلانى — ط دمشق ١٩٥٦ .

كلا ، فالذى بين لغة قريش ، ولغات القبائل العربية الأخرى ، لم يكن ابتلاعاً ولا اندماج لغات فى واحدة قد التهمتها وتغذت بها ، وإنما كان على ما نقل « ابن فارس » من قول أئمة علماء اللغة ، نوعاً من الاصطفاء اختارت به اللغة العليا ما رضيته من لغات القبائل ، وتحاشت ما كرهته منها ، دون أن تفنيها أو تقضى عليها ، بل اكتفت بالمجال العام المشترك وتركت لغات القبائل للمجال الحيوى الخاص بكل قبيلة .

ولا مفر من التسليم بأنه قد كانت هناك لغة عليا مشتركة ، ولغات محلية للحياة اليومية ، خضوعاً للطبيعة الاجتماعية للحياة اللغوية التى تقضى بوجود لغة للفن والثقافة والفكر ، غير اللغة المستعملة فى الحياة اليومية . وهذا ما فات أصحابَ دعوى انتحال الشعر الجاهلى ، وقد رابهم من أمره أن جاء من قبائل متعددة بلغة واحدة لا تحمل أثراً لاختلاف اللهجات . وشعراء العربية اليوم يتكلمون بلهجات متعددة شتى ويعيشون بها فى ديارهم وأقطارهم ، لكنهم فى الشعر يستعملون الفصحى المشتركة ، ولسنا مع ذلك ننكر أشعارهم أو يريبنا منها أنها لا تمثل لهجاتهم الإقليمية المختلفة .

والراجح أن القبائل العربية فى العصر الجاهلى ، لم تلتق على اللغة العليا فى الحياة الأدبية فقط ، بل كانت تستعملها أيضاً فى المجال الدينى حين تفد إلى مكة فى موسم الحج ، حيث بقى لنا من تلبياتهم ما لا نكاد نلمح فيه أثر اختلاف لهجاتهم [1] ، وإن كنا لا ننسى أن من مظاهر الاختلاف فى اللهجات ، ما يبدو فى النطق لا فى الكتابة . وتراث الجاهلية قد وصل إلينا مخطوطاً من عصر التدوين ، غير مسجل على أجهزة صوتية لم تكن قد اخترعت بعد .

ومع كل هذا ، بقيت آثار اختلاف اللهجات فى كثير من الشواهد النحوية واللغوية ، وفيما يلقانا فى معاجم العربية من اختلاف اللغات والصيغ ، وحشد المترادفات التى تتوارد على المعنى الواحد .

---

(١) انظر الفصل الذى أملاه « أبو العلاء » عن تلبيات العرب فى الجاهلية ، فى (رسالة الغفران) — ص ٥٣٤ ، الطبعة الخامسة ، ذخائر .

ونزول القرآن الكريم كان الخطوة الجليلة الحاسمة فى الوحدة اللغوية ، ومع ذلك بقى أثر اختلاف اللهجات فى الأحرف السبعة ، وفى القراءات ، إلى جانب بقاء اللهجات فى نطاق التعامل والحياة اليومية للقبائل ، ثم فى اختلاف لهجات الشعوب التى تعربت ، وتأثرت بلهجات القبائل العربية التى خالطتها ، على ما سوف نعرض له فى متابعة سير الحياة بهذه اللغة التى خرجت من جزيرتها قوية حية ، تواجه أكبر حركة تحول لغوى عرفها تاريخ المنطقة ، مستجيبة بكل مرونة وحيوية لمطالب الحياة الجديدة، وواعية لدورها الجليل فى تلبية حاجات الحياة اللغوية لأمة قوية منتصرة ، وشعوب ذات عراقة فى الحضارة والفكر والثقافة .

العربيّة فى أقطارها الجديدة مع الفتوح الإسلاميّة

من حيث وقف التاريخ مبهوراً يرصد حركة التحول اللغوى بعد الفتح الإسلامى ، ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التى عصيت من قبل على الغزو اللغوى ،

وقف أصحاب العربية يشفقون عليها من هذه المخالطة المباشرة ، ويرهفون سمعهم لالتقاط مالم يكن منه بد ، من شوائب العجمة وعثرات اللحن .

نزل القرآن الكريم كتاباً عربيًّا مبينًا . معجزة رسول بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . ففرض إعجازه على العرب في عصر عز الفصحى وأصالتها ونقائها .

وأخذ مكانه من عصر المبعث : كتاب الإسلام الخالد . وكتاب العربية الأكبر ، في ذروة أصالتها وباهر بيانها .

وقد تقبلت العربية من عصر المبعث زاداً سخيًّا من أساليب البيان القرآني المعجز ، ومن الدلالات الإسلامية التي وضعها القرآن لألفاظ من العربية ، كالإيمان والكفر والإسلام والهدى والضلال والنفاق ، والصلاة والزكاة ، والساعة والبعث والقيامة والجنة والنار والصراط ..[1].

وتهيأت العربية لتطويع ألفاظها للدلالة على ما استحدثت الحياة الإسلامية من جديد المعاني وما واجهت من آفاق ..

لكنها في الوقت نفسه واجهت مشكلات صعبة مع العرب أنفسهم في حياتهم الجديدة ، ثم مع الشعوب التي تعربت بعد أن أسلمت .

* * *

خرجت العربية من الجزيرة مع كتائب المسلمين الفاتحين الذين حملوا القرآن معهم لواء عقيدة ، وكتابَ لغةٍ عليا وبيانٍ معجز ، لكنهم حملوا معهم كذلك لهجاتهم ، واتصلوا بشعوبٍ تنطق بغير لسانهم ، واستقروا بعد الفتح في أقطار يختلف مناخها المادي والمعنوي ، ومسلكها اللغوي ، عن مناخ الجزيرة العربية .

وظهرت بوادر التأثر على العرب الخُلَّص أنفسهم قبل سواهم من أبناء الأقطار التي فتحها الإسلام ، فكانت في تقدير أصحاب العربية أزمة لا بد

---

(١) انظر الألفاظ الإسلامية في (المزهر للسيوطي) ص ٢٩٤ و (الصاحبي في فقه اللغة) لابن فارس : ص ٤٤ وما بعدها .

أن تحسم، حفاظاً على لغة الدين والدولة، ولسان قوميتهم التى لا يحل التهاون فيه .

* * *

من عصر الفتوح ، كان أخطر ما بدا من بوادر الأزمة ، ما يتصل منها بلغة القرآن الكريم ، لواء الكتائب الفاتحة ، وكتاب الإسلام الذى يقدم أصول الدين وشريعته وهداه .

والعرب الذين خرجوا مع الإسلام إلى الأقطار المفتوحة ، كانوا من مختلف القبائل القحطانية والعدنانية، قرشية وغير قرشية . وقد جاءوا بلهجاتهم من منازلهم فى شتى بقاع الجزيرة العربية ، وما كان لأحد أن يحجر على حريتهم فى التعامل بها لولا أن الأمر اتصل بكتاب الإسلام نفسه ، من حيث كان من العرب مَن يقرءون القرآن بلغاتهم ،وهم يروون حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، وقد أذن لهم فى القراءة بها . قصداً إلى التيسير .

والمشهور فى هذه الأحرف السبعة أنها لغات العرب الفصحاء التى جرت ألسنتهم عليها ، وبينها خلاف فى الألفاظ كالعهن والصوف ، وعَجِّل وأسرع وهلم وتعال .. وفى وجوه الإعراب كالذى فى خبر (ما) التميمية والحجازية ... وليس من الضرورى أن كل كلمة كانت تقرأ على سبعة أحرف ، بل السبعة مفرقة فيه ، بعض الألفاظ بلغة هذيل ، وبعضها بلغة هوازن وأخرى بلغة تميم أو خزاعة[1] .

ومن عصر المبعث إلى خلافة عمر بن الخطاب ، كان المسلمون العرب يقرءون القرآن على ما تيسر لهم من الأحرف ، فلا يبدو الأمر مشكلا ، فهى معان متفق مفهومها مختلف مسموعها ، ولا وجه يخالف آخر ، خلافاً ينفيه أو يضاده . كأن يقرأ بعضهم آية البقرة :

---

(١) اقرأ باب (الأحرف السبعة) فى كتاب (الإتقان فى علوم القرآن) للسيوطى . ص ٥٦ وما بعدها ، ط القاهرة .

« يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه » ، ويقرأ غيرهم: « كلما أضاء لهم سعوا فيه » .

أو أن يقرأ بعضهم آية الحديد :

« يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم » ويقرأ آخرون : أنظرونا ، أو : أمهلونا .

حتى استقروا فى البلاد التى فتحت للإسلام ، فكان اختلاف المسلمين فى قراءة كتابهم الدينى ، مظنة أن يُحمَل من غيرهم على محمل مريب ، فيتصور من يتصور أن المسلمين يبدلون فى كلمات الله ، مما اقتضى الموقفَ الحاسم من الخليفة « عثمان بن عفان » : جمع المصحف على حرف واحد هو المصحف العثمانى أو المصحف الإمام . ونسخت منه نسخ معتمدة وُزعت على الأمصار ، وأُمِر المسلمون بالاقتصار عليها ، وإحراق ماعداها من مصاحف كتبت على أحرف أخرى .

وبقيت آثار اللهجات بعد ذلك ، فيما يحتمله اللفظ الواحد فى المصحف الإمام ، من وجوه القراءات المتعددة فى المد أو القصر ، والهمز أو التخفيف والإدغام أو الفَكّ ؛ وفى الروم والإشمام والإمالة ، والترقيق أو التفخيم ... واستقر الأمر على سبع قراءات اختيرت لسبعة من أئمة القراء ، وتجدون الحديث عنها وعنهم مفصلا فى كتاب : (غاية النهاية فى طبقات القراء) لشمس الدين محمد ابن محمد الجزرى . ت ٨٣٣ هـ[1] .

* * *

هذا من ناحية القرآن الكريم ، كتاب الإسلام وقمة الفصحى .

فماذا عن الفصحى ، اللغة العليا المشتركة ، على ألسنة العرب الأصلاء الذين خرجوا من منازلهم فى الجزيرة ، فكانت لغة الشعراء منهم والخطباء والكتاب الرسميين وغير الرسميين ؟

---

(١) طبع السعادة بالقاهرة ، بعناية المستشرق برجشتراسر .

عصرَ الفتوح ، وقبل تعرب الشعوب الداخلة فى الإسلام ، كان خروج العربية من بيئتها الأصيلة وبعدها عن مهدها الأول ، مَدرجة إلى شىء من الخروج على بعض سننها فى القول . فظهر اللحن على ألسنة بعض العرب الخُلَّص قبل منتصف القرن الأول للهجرة .

والمعروف فى تاريخ النحو ، أن اللحن ظهر على ألسنة الجيل الأول من المولدين ، أبناء الفصحاء ، فى الخبر أن أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » قال : إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة الأعاجم . وقال « زياد بن أبيه » لأبى الأسود الدؤلى : إن هذه الحمراء — يعنى الأعاجم — قد كثرت وأفسدت ألسن العرب .

ثم فشا اللحن من بعد ذلك بحيث اضطر أمراء البيت الأموى إلى إرسال بنيهم إلى البادية أو استقدام مؤدبين لهم من البداة ، يقوّمون ألسنتهم ويأخذونهم بالنطق الصحيح .

وكان من اللافت أن الشعراء الكبار ، وهم من أمراء فن القول ، لم يسلموا من اللحن : فالفرزدق ، كبير الشعراء الإسلاميين ، وهو من بيت عربى صميم ، يخطئ فى اللغة ثم يضيق بمن يؤاخذونه على الخطأ. يروون فى تاريخه أنه حين أنشد بيته :

وعَضّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يَدَعْ من المال إلا مُسحَتاً أو مُجلَّف

سأله أبو عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى : على أى شىء رفعت مجلفاً ؟ قال : على ما يسوؤك !

وسمع ابن أبى إسحاق ، قول الفرزدق فى مدح يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمالَ الشام تضربهم بحاصبٍ كنديف القطن منثورِ
على عمائمنا تُلْقَى وأرحلنا على زواحفَ تزجَى ، مُخُّها ريرِ

فقال ابن أبى إسحاق : أسأت ، إنما هو : ريرُ .

ولما ضاق الفرزدق بتتبع عبد الله ابن أبى إسحاق الحضرمى لعثرات لسانه ، هجاه فقال :

فلو كان عبدُ الله مولى هجوتُه ولكنَّ عبدَ الله مولى مواليا

إذ كان عبد الله مولى آل الحضرمى ، حلفاء بنى شمس بن عبد مناف. وقد ضاق بقول الفرزدق : « مولى مواليا » أكثر مما ضاق بهجوه إياه ! [1] .

وحين نقرأ فى تاريخنا الأدبى أن اللغويين كانوا يُكبرون فصاحة بشار فيقول مفتخراً : من أين يأتينى اللحن وقد نشأت فى فصحاء بنى عقيل ، ورُبيت فى حجور نسائهن وهن أفصح من الرجال ؟ ونقرأ مع ذلك أن « الأخفش »[2] طعن على بشار فى قوله :

والآن أقصر عن سُمية باطلى وأشار بالوَجلَى علىَّ مشيرُ

وفى قوله :

على الغزَلى منى السلام فربما لهوت بها فى ظل مُخَضَرَّة زُهرِ

وقال : لم يُسمع من العرب الوجَلَى والغَزَلى ، قاسهما « بشار » من الغزل والوجل . فيما يُقتصر فيه على السماع دون القياس .

وطعن عليه كذلك فى قوله يصف السفينة :

تلاعب نينانَ البحور وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

وقال : لم يُسمع من العرب نينان . جمع نون .

فبلغ ذلك بشاراً فقال متوعداً : « ويلى على القصار ابن القصارين ! متى كانت اللغة والفصاحة فى بيوت القصارين ؟ دعونى وإياه ! » فبلغ ذلك

---

(١) الموشح للمرزبانى فى مآخذ العلماء على الشعراء : ٩٩ وما بعدها ط السلفية ١٣٤٣ .

(٢) ذكر المرزبانى فى الموشح (ص ٢٤٦) أن الخصومة اللغوية كانت بين بشار والأخفش. ونقل أبو العلاء أنها كانت بين بشار وسيبويه : (رسالة الغفران) ص ٤٢٩ ، ط ٥ ذخائر .

الأخفش فبكى ، وذهب أصحابه إلى بشار فكذبوا عنه وسألوه ألا يهجوه فقال : وهبته للؤم عرضه . فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعر بشار ، ليبلغه ذلك فيكف عنه .

وبلغ بشاراً عن « سيبويه » شيء من ذلك فهجاه وأفحش فى هجائه ، فيقال إن سيبويه تحاشى بعد ذلك إغضابه ، واحتج بشواهد من شعره[١].

حين نقرأ هذا ومثله ، مما جمع « المرزبانى » جملة منه فى كتابه (الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء) ندرك مدى ما طرأ على ألسنة الجيل العربى الذى ولد وعاش بعيداً عن مهد العربية الفصحى .

* * *

وإذا كانت عثرات الألسنة العربية بحيث يتتبعها اللغويون ، فإن المشكلة بدت أشد تعقيداً ، على ألسنة الشعوب التى تعربت بعد الإسلام .

فمنذ استقر الإسلام فى الأقطار التى فتحها ، انتصرت العربية على اللغات الأجنبية المفروضة على شعوب المنطقة ، ثم بدأت تواجه اللغات الوطنية لهذه الشعوب .

ولم تجد العربية أدنى مشقة ، فى اكتساح اللغات الأجنبية الدخيلة التى فُرضت على المجال الرسمى ، وظلت بمعزل عن الشعوب المحتلة ، سواء فى المشرق أو فى المغرب ، ويكاد المؤرخون الغربيون أنفسهم يجمعون على أن هذه اللغات صُفيت من المنطقة ، فى القرون الأولى للإسلام :

« إن خمسة قرون من الاحتلال الرومانى — لأقطار المغرب — لم تستطع أن تترك ما يصمد أمام العقيدة الإسلامية واللغة العربية »[٢] .

وفى مصر حيث استغرقت عهود السيطرة الأجنبية أكثر من ألف ومائة

---

(١) رسالة الغفران : ص ٤٢٩ ذخائر . وقابله على ما فى الموشح ص ٢٤٦ .

(٢) ابراهيم حركات : (المغرب عبر التاريخ) ص ٧٥ ط السلمى بالدار البيضاء .

عام قبل الفتح العربى ، لم تُجْدِ الجهود التى بذلها الغزاة على ذلك المدى الطويل لفرض لغاتهم وثقافاتهم عليها ، ولم تصمد اليونانية التى كان استأثرت بالمجال الثقافى والرسمى ثلاثة قرون قبل الميلاد (٣٣٣ : ٣٠ ق م) وثلاثة أخرى بعده (٢٨٤ : ٦١٦ م) أمام اللغة العربية[١] .

ولم يبد أن العربية واجهت فى أى قطر من المنطقة ، مقاومة من هذه اللغات الأجنبية المرفوضة ، وإنما كانت المواجهة مع اللغات الوطنية للشعوب التى دخلت فى الإسلام .

وحركة التعريب لم تبدأ مع الفتح الإسلامى وإنما انتظرت ريثما اطمأنت شعوب المنطقة إلى الدين الجديد ، ثم اتجهت إلى التعرب لكى تتعلم لغة القرآن ، كتاب دينها .

وكان من المتصور أن تجمع هذه الشعوب بين العربية لغةَ دين ، وبين لغاتها القومية التى صانتها طويلا ضد الغزو ، لغةَ حياة . ولكن لم يمض جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسانَ المشترك لشعوب أمة واحدة ، هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك ، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام ، بل تُركت لغة العرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة فى الإسلام .

والعربية هى لغة الدين والدولة .

وكذلك كانت الرومانية واليونانية والفارسية والبيزنطية .

ولكن الحواجز التى صمدت قروناً ضد تلك اللغات الغازية ، ما لبثت أن تهاوت أمام اللغة العربية .

وغير مقبول ما تصوره بعض الدارسين من أن العربية انتصرت بمجرد

---

(١) هارولد بيل : الهيلينية فى مصر – ص ٥٥ ، ترجمة د . زكى على (١٩٥٩) .

كونها لغة الغالب ، وإنما كانت مع ما يؤيدها من جلال القرآن وسلطة الدولة ، قادرة على أن تنتصر على اللغات القومية التى ضعفت لطول ما تعرضت له من حملات الغزو ، وطول ما عُزلت عن المجال الحيوى للثقافة والتعليم والدواوين. وإذا كانت قد احتفظت بمكانها الشعبى ، فإن المثقفين الوطنيين انحاز بعضهم إلى الثقافة الدخيلة ، وانعزل أكثرهم ، وهم قادة الشعب الروحانيون ، فى نطاق الفكر الدينى بعيداً عن أى مجال ثقافى آخر[١] .

ولم يكن موقف الشعوب من لغة العرب أن فرطت فى ألسنتها فجأة ، أو أكرهت على التخلى عنها بحد السيف كما ذهب المؤرخ « فيليب حتى» فى تاريخه الكبير ، ولا صدرت به قوانين ملزمة من الدولة ؛ وإنما مر الصراع اللغوى فى مراحله الطبيعية التى تحكمها سنن الاجتماع ، فبدأ بمرحلة عزلة تفاوتت بين قطر وآخر باختلاف طبيعة الإقليم قرباً وبعداً ، وميراثه الفكرى والحضارى ومسلكه الصوتى واللغوى ؛ وفى تلك المرحلة كانت العربية تتعامل مع أهل الأقطار المفتوحة عن طريق التراجمة ، وكُتُب التاريخ الإسلامى تذكر أشخاصاً منهم بأسمائهم كانوا يؤدون وظيفة المترجمين من العربية وإليها ، فى الدواوين والمعاملات ومجالس القضاء . وبعض هؤلاء المترجمين كانوا من العرب الذين يعرفون اللغات الأخرى ، وأكثرهم كانوا من أهل هذه الأقطار الجديدة ممن تفصحوا بالعربية .

ولم تطل مرحلة العزلة اللغوية ، والقرآن الكريم هناك يفتح للعربية قلوب من أسلموا ، وتعريب الدواوين يجذب المثقفين الذين يبادرون عادة إلى تعلُّم اللغة الرسمية التماساً لوظائفها ، وانتقال القبائل العربية إلى الأقطار المفتوحة يأخذ شكل هجرات جماعية استقرت فى مواطنها الجديدة . وألحق العرب الوافدون

---

(١) د . عبد المجيد عابدين : (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية فى مصر قبل الإسلام وبعده) ص ٣٤ .

بتلر : فتح العرب لمصر — ٦٥ من الترجمة العربية ، فريد أبو حديد .

فى (الديوان) بأهل الإقليم ، وخالطوا أبناءه وعاشوا بينهم وأصهروا إليهم ، حتى اندمجوا فيهم فما عادوا يتميزون عنهم [١] .

ويكفى لأخذ فكرة عن حجم هذه الهجرات الجماعية أن نقرأ فى تاريخ مصر الإسلامية مثلا : كتاب المقريزى (البيان والإعراب عمن بمصر من الأعراب) . و (خططه) التى حدد فيها منازل القبائل العربية بمصر .

وكتاب (فتوح البلدان) ، لابن عبد الحكَم (والنجوم الزاهرة) لابن تغرى بردى . و (حسن المحاضرة) للسيوطى .

وفى دراسة جامعية حديثة ، استخلص الدكتور « عبد الله خورشيد البرى » من هذه الكتب وغيرها من المصادر التاريخية ، القبائلَ العربية التى استقرت بمصر بعد الفتح ، وقد أحصى منها ستين قبيلة من القبائل العدنانية وبطونها ، ومائة واثنتين وسبعين قبيلة من القبائل القحطانية وبطونها [٢] .

ومع هذه القبائل الوافدة ، نفذت العربية إلى مواطنها الجديدة متغلغلة فى الحضر والبوادى ، فى السواحل والريف والجبال .

وفى هذه المرحلة ، كانت العربية تتعامل مع اللغات الوطنية مباشرة دون مترجم أو وسيط ، على أوسع نطاق غير محدود بالمجال الرسمى أو الدينى . تَطَوع حيناً وتتساهل لكى تلتقى مع لغة الجماهير ، وتجذبهم أحياناً بقوتها وحيويتها فيأخذون منها قدر طاقتهم . ثم ما لبثت العربية أن اجتازت مرحلة التبادل أخذاً وعطاء . تأثراً وتأثيراً ، لتنتصر على اللغات الوطنية التى تركت المجال لهذه اللغة القوية المنتصرة المستجيبة لحاجات حياتهم اللغوية فى يسر وسخاء ، الواعية لدورها الجليل فى تعريب ألسنة شعوب عريقة فى الحضارة والتاريخ . .

* * *

---

(١) المقريزى : البيان والإعراب : ص ١٨ .

(٢) القبائل العربية فى مصر ، فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة : ص ٥٩ . ط دار الكاتب العربى بالقاهرة ١٩٦٧ .

هل تأخرت حركة التعريب ؟

فى مصر مثلا ، يرى « يوهان فك » أن الفصحى رجحت كفتها فى مجال الرسميات والتعبد ، وأن لهجات القبائل رجحت فى التعامل اليومى ، فى نهاية القرن الثالث ، وأخذت اللغة الوطنية تتراجع إلى سهول الريف والمناطق البعيدة حتى تلاشت تماماً فى القرن السادس للهجرة[1] .

ولكن هذا التحديد موضع نظر :

فتأخُّر رجحان العربية إلى القرن الثالث ، وانتصارها إلى القرن السادس لا يكاد يثبت أمام ما يعرفه تاريخ مصر فى أوائل عصر الولاة .

فنحن نقرأ فى تاريخ مصر ، فى أول العصر الأموى أن « معاوية بن أبى سفيان » أحدث فى مصر وظيفة (القاصّ الرسمى) لمواجهة الفتنة بها ، إذ كان لخصوم الأموية قُصاص يجمعون الناس حولهم فى المساجد أو الطرق يعظونهم ويسلونهم بالقصص والحكايات وأخبار الأمم الماضية ، ويبثون فى ثناياها آراءهم السياسية والمذهبية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

والقصص لا يكون لها تأثير على الوجدان العام ، إلا إذا كانت حركة التعريب قطعت شوطاً ذا بال .

والقاص الرسمى فى دولة عربية إسلامية ، لا يمكن أن يتحدث بغير العربية . فهل كان الذين يحضرون مجلسه ويستمعون إليه من مهاجرة العرب دون المصريين ؟ أو كان هناك من يترجم تلك القصص إلى المصريين ؟

والخطب الدينية المنبرية فى المساجد التى انتشرت من بداية عصر الفتح ، والخطب السياسية للولاة ، كانت بلا شك تلقى بالعربية فى مصر وسائر الأقطار الإسلامية ، فماذا عن جمهور المستمعين لها من غير مهاجرة العرب ؟

ونقرأ فى تاريخ إفريقية والمغرب ، أن جيش طارق بن زياد كان فيه

---

(١) العربية . ص ٢٢ – ترجمة د . عبد الحليم النجار ، ط ١٩٥١ .

عشرة آلاف من قومه البربر ، معهم ألفان من العرب ومتعربة المشرق . وقد خطب فيهم زياد بالعربية ، فهل كانت خطبه موجهة إلى العرب دون قومه البربر وهم الكثرة فى جيشه ، أو أنه كان يلقى الخطبة مرتين : إحداهما بالعربية والأخرى بالبربرية ؟

كل هذه الأسئلة تجعلنا نتردد فيما قيل عن طول المرحلة التى استغرقها تعرب الشعوب التى دخلت فى الإسلام .

وإذ نمضى فى التماس الجواب عنها نجد أن تاريخ علوم العربية والإسلام عرف أعلاماً من المتعربين من عصر مبكر : فعلم النحو يدين « لسيبويه » وهو فارسى الأب ، و (الكتاب) الإمام ، ومدرسة أبى حنيفة فى الفقه نهض بها رجال من العراق فى الطبقة الأولى من أصحاب المذهب . وجديدُ مذهب الإمام الشافعى ، حمله رجال مدرسته والطبقة الأولى منهم مصريون ، هجرةً أو تعرباً . وفقه الإمام مالك ، دوّنه « سحنون » حامل المذهب إلى المغرب . .

والقراء السبعة الذين انتهت إليهم الأمة فى قراءة القرآن ، ورجال الطبقة الأولى من القراء الذين تسلسل فيهم السند إلى الأئمة السبعة ، أكثرهم من الموالى ، لا من العرب الخلص. والموالى فى المصطلح التاريخى ليسوا العبيد الأرقاء وإنما هم من أبناء الشعوب المفتوحة الذين فرضت عليهم الدولة الأموية أن يلتحقوا بالقبائل العربية ولاء[1].

وكل رجال الطبقة الأولى بعد الأئمة السبعة[2] ، الذين نجد فيهم إلى جانب العربى الصميم ، المصرىَّ والمغربى والخوارزمى والكوفى والفارسى ؛ من أعلام القرن الثانى للهجرة ، مما يشهد بأن العربية التى أخذت مكانتها من عصر الفتح لغةَ دين ودولة ، استقرت فى أقطارها الجديدة من الأجيال التالية للفتح الإسلامى مباشرة ، لغةَ ثقافة وأدب رسمى وشعبى ، مبتدئة من جيل

(١ ، ٢) الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء .

الذين ولدوا فى هذه الأقطار ، من العرب أو من نسب مشترك ، أو من أصول غير عربية .

وأيًّا ما كان الأمر ، فإن القرون التالية لهذا الاستقرار ما لبثت أن تلقت علماء من أبناء الشعوب المتعربة ، كانوا من أعلام المؤلفين والمصنفين ، لا فى العلوم الجديدة على العربية فحسب كالمنطق والطبيعيات والرياضيات ، ولكن فى علوم اللغة والبلاغة كذلك ، وفى علوم الإسلام : الحديث والرواية والفقه والمغازى والسير والقراءة والتفسير والتصوف . فنقرأ من طبقات النحاة واللغويين بعد سيبويه والكسائى أسماء : السجستانى ، والسيرافى ، وابن دستوريه ، وأبى على الفارسى ، والأصفهانى ، والسرخسى ، والكرمانى والأنبارى ، والرازى ، وابن خالويه . . .

ونقرأ فى طبقات المفسرين إلى القرن الخامس الهجرى ، أسماء : النيسابورى والبلخى والمصرى والإدفوى ...

وفيهم أئمة حملوا ألقاب : حبر الأمة ، وإمام العصر ، وشيخ المذهب ، وحامى السنة ، وتاج العلماء . .

والتاريخ الذى قدّم كل هؤلاء الأعلام ، هو الذى صمت فى عصور ما قبل الإسلام ، لم يقدم إلينا عالماً مغربيًّا أو أديباً مصريًّا بالرومانية ، أو فقيها شاميًّا بالفارسية أو الرومية .

* * *

والسؤال الذى يواجهنا هنا : هل يمكن أن تظل العربية على حالها الأولى بعد أن اتسع مجالها فصارت لسان الشعوب الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ؟

لقد مر بنا ما كان من أثر المخالطة والجوار فى العصر الجاهلى الصميم ، ثم ما كان من تأثر العرب الخلص فى عصر الفتوح بالبيئات الجديدة التى

هاجروا إليها من منازل قبائلهم فى الجزيرة . ولا بد أن تكون المخالطة أعمق أثراً وأعم شمولا . على ألسنة الشعوب المتعربة من وراء النهر إلى ساحل المحيط الأطلسى . . .

لو أن العربية كانت لغة الدين والدولة فحسب ، لما كان هناك مجال لأن تختلف فى مشرق عن مغرب ، أو تتفاوت فى الحواضر عن البوادى والريف والجبال . لكنها كانت كذلك لغة الثقافة والعلم والأدب والتأليف فى الأقاليم المختلفة ، وكانت لغة الحياة لجماهير الشعوب التى لا يصلها باللغة العليا غير القرآن الكريم .

ومرة أخرى . تواجهنا هنا عقدة الإقليمية التى أشرنا إليها فى المدخل التاريخى . بما شابها من خطأ الفهم وضلال المقاييس منذ اتخذ منها الاستعمار ذريعة تفرقة وأداة تمزيق لوحدتنا الجامعة . وقد ألقت العقدة ظلها على الدراسات العلمية التى تبحث فى الملامح المميزة للشخصية العربية فى كل قطر من أقطارها ، وترصد التيارات المؤثرة فى المناخ الروحى أو الفكرى واللغوى والأدبى ، لمناطق وطننا العربى الكبير . وصار من اليسير أن يُتهم أصحاب هذه الدراسات بالإقليمية ، فى مفهومها الخاطئ الشائع .

ويبدو غريباً أن الدراسة الفقهية تحررت من هذه العقدة ، وشُغلت بملمح الخصائص الإقليمية المميزة لبيئات المذاهب وشخصيات الأئمة . فلا يجد عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر ، أدنى حرج فى أن يتحدث عن « جغرافية المذاهب الفقهية » ويؤيد « دراسة الفقه الإقليمى » ويعنى بها « تأثير الأقاليم الإسلامية فى هذه المذاهب التى استوطنتها وعاشت فيها » ثم يمضى فى الشرح قائلا :

« والواقع الذى لا مرية فيه . أن الفقه المذهبى قد تحلل فى كثير من

الأحيان من تلك القيود النظرية التى كانت للفقهاء الأول ، إلى مناهج قد تأثرت بالأقاليم التى انتشرت فيها المذاهب ، والمناطق التى استقر بها العمل فيها ، حتى اتخذ طابعاً إقليميا خاصاً فى تلك البلدان والأمصار ، شأنه فيه ككل كائن حى يخضع لعوامل الزمان والمكان . ومن أمثلة ذلك : القديم والجديد من مذهب الإمام الشافعى ، فالمشهور أن القديم هو ماقاله بالعراق إفتاء وتصنيفاً ، والجديد ما قاله بمصر .

« ومثل ذلك يقال عن المذهب المالكى ، فهناك طريقة للعراقيين وطريقة للمغاربة ، وأخرى للقرطبيين بالأندلس ، وطريقة رابعة لإقليم مصر ممزوجة من الأقاليم الأخرى .

« وفى العصور المتأخرة ، يختلف الفقه الشافعى فى مصر وجزيرة العرب عنه فى الملايو وإندونيسيا ، اختلافاً بينا ، تبعاً للعادات والبيئات التى يعيش فيها المذهب . . . . .

« وإنه لمن الأوفق وثوقاً والأوثق توفيقاً ، التفكير فى تصنيف الفقه إلى مناطق تمثل كل منطقة منها وحدة جغرافية اجتماعية ، تقوم على أساس أن لكل منطقة مميزاتها فى نطاقها الاجتماعى والثقافى ، تبعاً للعادات والملابسات النفسية والاقتصادية والسياسية ، وأحوالها الطبيعية والجغرافية »[1]

وأضيف : إن تاريخ الفقه يعرف هذه الفروق الإقليمية ، فى مذاهب الفقهاء الأئمة الأولين ، لا فى المناطق التى انتقلت إليها فحسب . فمذهب الإمام أبى حنيفة اتجه إلى الرأى والقياس تأثراً بالبيئة ، وأخذ الإمام مالك بالأثر لوجوده فى المدينة التى عاش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة بعد الهجرة . والإمام الشافعى قرأ (موطأ الإمام مالك)

---

(١) انظر مقدمة الدكتور على حسن عبد القادر ، لكتاب أحمد تيمور (نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الفقهية الأربعة) ط لجنة نشر المؤلفات التيمورية ١٩٦٥ .

فى المدينة ، ثم تلقى مذهب أهل الرأى فى العراق ، على محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة ، ثم أقام بمصر ، فعدل عن الرأى إلى الحديث ، مع ميل إلى التحليل وحرية النظر ورد فروع المسائل إلى أصول ، وحصر الجزئيات فى كلية[1] .

* * *

أما الدراسة الأدبية واللغوية فما تزال تحمل أثراً من هذه العقدة التى تحررت منها الدراسة الفقهية ، برغم سبق القدامى من المؤرخين والنقاد ، إلى تقديم دراسات متخصصة فى أدب الأقاليم بالمشرق أو المغرب ، مثل « يتيمة الدهر » للثعالبى ، و « خريدة العصر » للعماد الأصفهانى ، و « الذخيرة » لابن بسام ، و « نفح الطيب » للمقرى التلمسانى .

وكان للمحاولة الجليلة التى قدمها أستاذنا « أمين الخولى » [2] فى تحرير نظرية الإقليمية فى فهم الأدب وتاريخه من الظلال التى شابتها ، أثرها الهام فى توجيه هذا الجيل من الجامعيين إلى الدراسات المتخصصة فى آداب الأقاليم العربية ومناطق كل قطر منها .

فلا حرج علينا إذ نحن مضينا فى لمح العوامل الإقليمية التى أثرت فى لغتنا من قديمها المعروف لنا إلى عصرنا الحاضر .

* * *

ليس من السهل أن يتتبع الراصد سير العربية فى أقطارها الجديدة . فالحياة اللغوية تخضع لمؤثرات شتى قديمة وطارئة ، مناخية ومزاجية وبيولوجية ، متشابكة فى نسيج معقد .

ويمكن مع هذا أن نجمل القول فى سير الحياة بلغتنا ، فنراها كانت

---

(١) انظر الجزء الأول من كتاب (مالك بن أنس : ترجمة محررة) للأستاذ أمين الخولى . ط الحلبى بالقاهرة . وكتاب (الإمام الشافعى) ، للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(٢) فى كتابه : فى الأدب المصرى . ط المعارف بالقاهرة .

محكومة بتيارين متقابلين : أحدهما يشدها إلى أصيلها القديم ويرى فى اى خروج عليه ظاهرة فساد ونذير خطر ، بل يعد الزمن نفسه عدواً لها !

ويشدها تيار آخر إلى مجرى الحياة الدائب المتدفق ، منطلقاً بها مع الزمن لا تتوقف .

والتياران ، على بُعد ما بينهما ، يحدثان نوعاً من الاتزان بين قديم يحمى الأصالة ، وجديد يمدها بالحيوية ويساير بها الزمن ، ويقاوم الجمود ، عدو الحياة . .

* * *

ومن حيث وقف التاريخ يرصد حركة هذا التحول اللغوى الخطير ، ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التى عصيت من قبل على أى غزو لغوى خارجى . وقف أصحاب العربية يشفقون عليها من هذه المخالطة المباشرة .

ومن حيث أرهف الزمن سمعه ليصغى إلى العربية يَنْطَقُ بها فى ريف مصر والعراق والمغرب ، وعلى سفوح لبنان وقاسيون والأطلس وأوراس . والبداة فى الصحارى المنعزلة بعيداً عن السواحل والوديان ، أرهف حُماة العربية سمعهم لالتقاط أى لحن أو شائبة من عجمة تشوب هذا اللسان الشريف الذى نزل به القرآن الكريم ، كتاب الإسلام ومعجزة نبيه عليه الصلاة والسلام .

واللغة العربية ماضية فى حركتها تتسع وتنمو وتتلقى جديد الروافد فى مرونة سخية . وحُراسها ساهرون عليها لحماية أصالتها .

وأخذت الحياة اللغوية مجراها فى جانبين :

الفصحى العالية المشتركة ، لسان العربية دينا ودولة وثقافة وعلماً وأدباً .

ولهجاتها الإقليمية على ألسنة الشعوب المتعربة .

أما الفصحى ، فكانت الحركةُ المضادة لاختلاط الألسن وتيارات الغزو

الشعوبى . هى حركة الجمع والتدوين التى ازدهرت فى القرن الثانى الهجرى وأخذت وضعاً دينيًّا وقوميًّا بالغ الخطر . وقد استطاعت حركة الجمع أن تأتى بقدر كبير من تراث الجاهلية . حيث العربية فى وطنها لم تختلط بالألسن ولم تشبها شائبة عجمة . وشد الرواة رحالهم إلى البادية والمناطق البعيدة نسبيًّا عن التيارات الوافدة ، ليأخذوا من أفواه الأعراب ما وعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد . ولم يفت أولئك الرواة ما لحق بالشعر من آفات الوضع والانتحال . غير أن الحركة كان لها من الحرمة ما يصونها إلى حد كبير من عبث الأهواء وتزييف المرتزقة من الرواة ، ويخضعها لرقابة دقيقة صارمة كشفت عن أكثر الزائف والمنحول ، وميزت رواة عُرفوا بالضبط والثقة والأمانة ، وجرحت آخرين بالتهاون أو الكذب والوضع . ذلك لأن حركة الجمع والتدوين قُصد بها أول ما قصد ، إلى حماية لسان الأمة وخدمة كتاب الإسلام وفهم ألفاظه وتوجيه إعرابه ولمح أسراره فى التعبير والبيان ، وقامت فى القرنين الثانى والثالث للهجرة على أيدى رُواة أئمة ، من الخبراء ذوى البصر بالشعر « يعرفون صحيحه من زائفه كما يعرف الجوهرى والصيرفى صنوف الدرهم والدينار » بنص عبارة ابن سلام فى مقدمة (طبقات الشعراء) .

والذى فات أولئك الخبراء كشفه من المنحول ، كان من مهارة التقليد بحيث يحمل خصائص الأصل[1] .

واستطاعت هذه الحركة التاريخية أن تستخلص للفصحى معجم ألفاظها وقواعد نحوها واشتقاقها وخصائص أساليبها وضوابط شعرها . والقرآن الكريم فى قمته العليا ، يجلو العربية فى ذروة نقائها ومعجز بيانها .

ومعروف أن علماء اللغة حاولوا أن يقفوا فيما يعتمدون من شواهد

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، الفصل الأول .

واقرأ معه الفصل الأول من (تراثنا بين ماض وحاضر) مطبوعات المعهد ١٩٦٨ .

لغوية ، عند تراث العصر الجاهلى وصدر الإسلام ، وتحاشوا الأخذ عن المولدين ولو كانوا فى مثل فصاحة بشار . لكن العربية لم تجمد عندما أراده لها اللغويون ، بل تابعت نموها وتوسعها لتفى بحاجات الحياة اللغوية للدولة الإسلامية الكبرى ، وفرضت على المعجميين أنفسهم ألا يقفوا عند رصيدها الذى جاءت به حركة الجمع .

* * *

والفصحى كانت اللغة العليا المشتركة ، لشعوب تباعدت أصولها واختلفت أقاليمها وتفاوتت أمزجتها وميراثها الفكرى والثقافى والحضارى .

فهل كانت فى المجال الثقافى والأدبى . محصنة بمناعة تحميها من التأثر بالعوامل الإقليمية ؟

أشرنا فى المدخل التاريخى إلى أن الشعوب المتعربة حملت معها تراثها الثقافى والحضارى .

كما كان للمزاج المحلى والتراث الروحى أثره فى الفرق الإسلامية والاتجاهات الروحية ، فتأثر مناخ العراق مثلا بتراثه القديم وبالتيارات الوافدة من الشرق الأسيوى ، واستقر به المذهب الشيعى بما دخل عليه .

وظهرت الصوفية فى مصر متأثرة بمزاجها الدينى الصافى ، ووجدانيتها المتوهجة .

وفى المجال اللغوى تميزت مدارس معروفة فى النحو والبلاغة ، فى الكوفة والبصرة وبغداد ومصر . واضطلع المغرب بدور جليل فى الدراسات الإسلامية لموقعه الهام على تخوم دول مسيحية .

واتسعت العربية لهذه الآفاق المترامية ، فكانت لغة العلم والثقافة والأدب لشعوب الدولة الكبرى .

وسبقت الإشارة إلى أن العربية فى آفاقها الجديدة كانت محكومة بتيارين من المحافظة والتجديد ، يكفلان لها نوعاً من الاتزان ، على بعد ما بينهما .

وقانون حفظ الذات ، يرفض التخلى عن أصيل العربية كما عرفته فى عصر نقائها .

وقانون الحرص على البقاء يستجيب لكل دواعى النمو والتطور ، ولو كان ذلك على حساب ما هو أصيل وعريق .

ولقد استطاعت العربية بمرونة فائقة ، أن تتحاشى أزمة موقفها بين القديم الأصيل والمحدث الطارئ ، بتطويع دلالات الألفاظ والتوسع فى المجاز ، لكى تؤدى المعانى الجديدة التى لم يكن للعرب عهد بها من قبل . وكانت تجربتها التى أثرتها بالمصطلحات والألفاظ الإسلامية من عصر المبعث إلى عصر الفتوح ، قد نجحت تماماً فى هذا التطويع للغة الجاهليين الوثنيين ، دون أن تجد مشقة أو عسراً لتكون لغة الأمة الإسلامية[1] .

والقرآن الكريم قد تكفل بالقدر الأكبر من تطويع ألفاظ العربية للدلالات الإسلامية ، فسار المسلمون فى العهد الأول على الهدى القرآنى ، فوضعوا مصطلحات علوم السنة والحديث والفقه والأصول والمذاهب والنظم الإسلامية . كما طوعوا ألفاظ الفصحى الجاهلية للدلالات الاصطلاحية التى احتاجت إليها علوم النحو واللغة والعروض والبلاغة وسائر علوم العربية .

وكان الاتجاه السائد فى تلك المرحلة ، الاستغناء بالمجاز والتوليد والاشتقاق عن الدخيل إلا عند الضرورة . وكانت العربية كلما احتاجت إلى الدخيل ، سارت على نهجها فى تعريب ما تأخذ منه ، بتغيير اللفظ أو الصيغة ، وإلحاقه بآخر عربى ، كى تضع على المعرَّب طابعها وتتصرف فيه بالإعراب ، واشتقاق الأفعال والمصادر وسائر المشتقات ، وإجراء الصيغ العربية عليه فى التثنية والجمع والتذكير والتأنيث والتصغير والنسب . . .

وبلغ من دقة ضوابط التعريب ، أن استطاع اللغويون استخلاص القوانين التى كانت العربية تجرى عليها فى تعريب الدخيل وإلحاقه

---

(١) السيوطى : المزهر فى علوم اللغة – ص ٢٩٤ وما بعدها .

والتصرف فيه . كما استطاعوا من العصور الإسلامية الأولى ، استنباط قواعد لمعرفة المعرب والدخيل ، والقيام بمحاولات إحصائية لحصر ألفاظهما وردها إلى أصولها من اللغات الأخرى[1] مما يشهد بأن حركة الأخذ والتعريب فى مراحلها المتقدمة كانت محدودة المجال والنطاق ، لا سيما فى اللغة الفصحى المشتركة المعترف بها على مستوى الدولة ، فى الأدب والعلم والتأليف.

* * *

لكن اتساع الدولة الإسلامية وتدفق الدماء الجديدة فى شرايينها ، جعل من الصعب أن يظل الأمر على ماكان من حصر الدخيل أو المعرب فى النطاق الضيق . فالأمم التى أسلمت وتعربت ، كان لها ميراث فكرى وعلمى احتاجت إليه الدولة ، وفرضه تطور النظم الإدارية والسياسية فى الحكم ، مع سيادة العربية واستقرارها لسانا للشعوب التى هجرت ألسنتها الأولى إلى لغة القرآن .

وبدا من الضرورى أن تتوسع العربية فيما ضيّقت من باب الدخيل والمعرب. وتقدم أبناء الأقطار الإسلامية ممن تعلموا العربية ، ينقلون إليها ذخائر التراث القديم للأمم العريقة فى العلم والحضارة ، فى علوم جديدة تماماً على العربية ، لم تكن قد مارستها أو اتصلت بها قبل الفتح .

وحركة النقل بدأت مبكرة فى العصر الأموى برعاية أمير مستنير مثقف من الأسرة الحاكمة ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » ثم نشطت الحركة فى العصر العباسى الأول تحت رعاية الدولة ولحسابها ، وتحمل بيت المال النفقات الباهظة لحركة الترجمة التى أخذت وضعاً رسمياً بالغ التنظيم والدقة . واستكملت أجهزتها من الخبراء والمترجمين والمراجعين والخطاطين والنساخين . ولم تدخر الدولة وسعاً فى التماس كنوز المعرفة القديمة من مظانها . فنقرأ

---

(١) تجد هذا كله بتفصيل ، فى كتب : المعرب للجواليقى ، وشفاء الغليل للخفاجى ، والباب التاسع عشر من (المزهر) للسيوطى .

فى تاريخ عصر الرشيد أنه ألف هيئة علمية بإشراف « ابن ماسَوَيه » مهمتها تقدير التعويضات التى تدفعها الدول المهزومة من ذخائر كتبها . ونظّم « المأمون » مجمعاً علمياً للترجمة ، فيه أعلام المترجمين والخبراء فى الفلسفة والرياضة والطبيعة والفلك والطب وسائر العلوم التى عرفها القدماء [١] .

وسايرت العربية هذه الحركة التاريخية ذات الأثر البعيد فى الحياة الفكرية واللغوية والحضارية ، فاستوعبت تراث الأمم القديمة لم تكد تدع منه شيئاً ذا بال .

ولا أطيل الوقوف عند الجدل الذى أثير حول ملكية هذا التراث العلمى والفكرى ، وقيل فيه إن التاريخ لم يعرف للعرب قديماً فى الحضارة والعلم [٢] ، بل يكفى أن ألفت إلى الحقيقة التاريخية التى تجعل من تراث الشعوب المتعربة تراثاً للأمة العربية المكونة من هذه الشعوب ، وأن ماضيها الحضارى هو ماضى الأمة الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب . ثم إن تراث اليونان نفسه . مدين لتراث الشرق القديم حيث قامت حضارات عريقة رائدة ، هى فى الواقع التاريخى ميراثنا جميعاً ، نحن الذين عَرَفنا التاريخُ أمةً واحدة من القرن الأول للهجرة .

الذى يعنينا هنا ، هو أن العربية استوعبت ذلك التراث العلمى كله ، وتمثلته ، وأدته إلى الإنسانية فى لسانه العربى وروحه الإسلامية . كما أضافت إليه رصيد علماء الدولة الإسلامية الذين تتابعوا على الميدان بعقلية متحررة من الخصومة العتيقة بين العلم والدين . فقدموا جديداً من العلوم الطبيعية والرياضية . ودخلوا التاريخ العلمى رواداً لآفاق لم يستشرف لها مَن قبلهم .

وتلقت المكتبة العربية أوليات الكتب العلمية التى ألفها الرواد فاستطاعت

---

(١) يمكن أن يعد « الفهرست لابن النديم » مرجعاً قريبا لمثار حركة الترجمة الكبرى .

(٢) عرض الدكتور توفيق الطويل لهذه القضية فى الباب الأول من كتابه (العرب والعلم) النهضة العربية ١٩٦٨ .

أن تؤدى كل مصطلحات العلوم الرياضية فى الحساب والجبر والفلك والملاحة . وأن تستوعب المصطلحات العلمية فى الطب والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والصيدلة والنبات ، فى مثل مؤلفات جابر بن حيان وابن يونس والبيرونى والخوارزمى والحسن بن الهيثم وابن البيطار والشريف الإدريسى ، وأبى بكر الرازى وابن سينا والزهراوى والفرغانى والبتانى ونصير الدين الطوسى والإدريسى وأحمد بن ماجد ، ومن لا أحصى من علماء عصر النهضة الإسلامية التى أخذت الدور القيادى للحضارة الإنسانية فى العصر الوسيط .

وفى كتاب « كشف الظنون » لحاجى خليفة — ط استانبول ١٩٤٢ — ما يعطيكم فكرة وافية عن مدى الطاقة التى مكنت للعربية من أن تترك مثل ذلك الرصيد الضخم من المؤلفات فى شتى فروع العلم والمعرفة والأدب ، مع تقدير أن هذا الذى فى الكتاب ، هو ما بقى لنا إلى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى من ذخائر تراثنا ، بعد أن لقى أكثره مصيره الفاجع فى حروب الصليبيين وغزو التتار ، وفى الصراع السياسى والدينى والمذهبى الذى ألقى بكنوز المكتبة العربية والإسلامية وقوداً لنار الحقد والتعصب والجهل . . .

* * *

ومن الخطأ الفاحش ، أن يُرَدَّ علماءُ الأقطار الإسلامية إلى أصولهم البعيدة التى كانت شعوبهم تنتمى إليها قبل الإسلام ، أو إلى سلالاتهم الأولى من عهد سام وحام ويافث !

وهى دعوى خاطئة تسللت إلى فكرنا المعاصر من الغرب المستعمر ، كما تسللت إليه قبلها فكرة السامية التى ألقى اليهود بذرتها فى العصور الوسطى .

فمنذ حط الغربيون أعينهم على بلادنا راحت مطابع الاستعمار من القرن الماضى تخرج مؤلفات لسلخ علماء الدولة الإسلامية من قوميتهم العربية الجامعة ، وردهم إلى أصول قديمة فارسية أو يونانية أو هندية أو مغربية ، وهى الأصول التى قرر التاريخ أن عناصرها ذابت جميعاً فى شخصية واحدة وقومية مشتركة للأمة الإسلامية .

وفى أقصى الطرف المقابل ، وقف آخرون يخلعون عن الحضارة الإسلامية صفتها الحقيقية ويردونها إلى العربية[١].

والحق التاريخى أن هذه الحضارة العلمية كانت إسلامية شاركت فيها كل شعوب الدولة ، واستطاعت اللغة العربية أن تستوعبها وتؤديها باقتدار .

والمسألة هنا لا تقف عند الثراء اللغوى ، بل تمتد أبعادها إلى الفكر والثقافة والحضارة ، وقد اتسعت العربية لهذه الآفاق المترامية ، وتلقت من الأقطار الإسلامية ثماراً خصبة شارك فيها العلماء من مشرق ومغرب .

وما كان يمكن أن تنهض بكل هذا لولا مرونة طبيعية فيها استجابت بها للحياة ، وحيوية سخية حمتها من الجمود وأعانتها على القيام بدورها الجليل ، فلم تتحرج من إضافة معربات جديدة واقتباس أساليب محدثة وتحقيق الوجود اللغوى لشعوب اختلفت أقطارها وتفاوتت بيئاتها وتناءت أصولها البعيدة .

وعلى المدى الطويل ، ما بين العصر الجاهلى والعصر الوسيط ، جدّ على العربية ما جد من مقتضيات التطور وسير الزمان ، وهُجرت ألفاظ وصيغ من صميم الفصحى لم تتقبلها الحياة ، واستُحدثت دلالات جديدة لألفاظ من الفصحى دخلت من الباب الواسع للمجاز . وتأثرت الأساليب فى التعبير والبيان بالمناخ المعنوى والمادى ، على اختلاف الزمان والمكان ، واستُحدث الأسلوب العلمى والفلسفى إلى جانب الأسلوب الفقهى والأدبى .

* * *

وعلى ذلك المدى الطويل أيضاً ، كان علماء اللغة ساهرين على حراستها يشتدون فى رقابتهم على الأقلام والألسن . وإذا كان العصر الأموى قد شهد نوعاً من هذه الرقابة على الشعراء المولدين من العرب ، فإن الخرق اتسع

---

(١) د . توفيق الطويل : « العرب والعلم » ص ٢٠ : ٢٥ .

على الراقع بعد أن قويت المخالطة اللغوية وصارت العربيةُ اللسانَ القومى للأقطار المتعربة ، دولة وشعباً . ولم يسلم خاصة اللغويين أنفسهم ، من أعلام الطبقات الأولى ، من عثرة لسان أو زلة قلم[1] .

ولم يدعُ هذا إلى اليأس من الرقابة أو التخفيف منها ، بل لعلها زادت حدة وصرامة مع تدفق مجرى الحياة اللغوية . حتى صار الأمر إلى خصومة حادة بين حراس الفصحى وبين المؤلفين والأدباء .

ومن عصر التدوين بدأت المكتبة العربية تتلقى مؤلفات فى مآخذ علماء اللغة ، على أقلام الخاصة وألسنتهم .

وكتاب « الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء » للمرزبانى ، يتتبع هذه المآخذ على ألسنة الشعراء وهم من خاصة أصحاب فن القول ، لا يقف عند المولدين منهم ، وقد سبقت الإشارة إليهم . بل يمضى مع الشعراء المحدثين من بشار بن برد إلى ابن الرومى .

والمرزبانى توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع للهجرة (٣٨٤ هـ) والعربية ماتزال فى أوج نهضتها ، والدولة الإسلامية لم تدخل بعد فى عصر الضعف والهبوط .

وفى تراثنا ، من كتب الرقابة على الخاصة من المؤلفين ، رواة ومحدثين وأدباء :

« تهذيب اللغة » لأبى منصور الأزهرى .

« تهذيب الأسماء واللغات » ليحيى النووى .

« إصلاح المنطق » لأبى يوسف يعقوب بن السكيت .

« إصلاح غلط المحدثين » لأبى سليمان الخطابى .

« تصحيف المحدثين » و« شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » لأبى أحمد العسكرى .

« تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » لصلاح الدين الصفدى .

---

(١) اقرأ مثلا من ذلك ، ترجمة الكسائى فى (طبقات المفسرين للسيوطى) ومشهد المحاكمة اللغوية لأبى على الفارسى فى المحشر ، برسالة الغفران – ص ٢٥٤ – ط ٥ ذخائر العرب .

« التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الأصفهانى .

« التنبيهات على أغاليط الرواة » لعلى بن حمزة البصرى .

« التنبيه على أوهام أبى على القالى فى أماليه » لأبى عبيد البكرى .

« درة الغواص فى أوهام الخواص » للقاسم بن على الحريرى .

« تثقيف اللسان » لابن مكى الصقلى – من لغويى القرن الخامس للهجرة ، ت ٥٠١ هـ – ومن أبوابه : "باب ما خالفت فيه الخاصة العامة وجميعهم على غلط" وأبواب فى لحن الخاصة ، منها : "باب غلط قراء القرآن ، وأهل الحديث والفقه ، وأهل الوثائق ، والطب ، والسماع "[1].

والأمر مع ذلك ، يفوت الاستقصاء ، فقاموس الفيروزابادى عليه حاشية للشيخ نصر الهورينى ، تصحيحاً واستداركاً .

وابن سيده فى (المحكم) لا يكاد يدع مادة تمضى دون تتبع أغلاط اللغويين فيها وقذفهم بالجهل والغفلة . وكتب الشروح والحواشى النحوية مليئة بالطعن والتجريح . وكتب المفسرين اللغويين والبلاغيين – كالبحر المحيط لأبى حيان ، والتفسير الكبير للفخر الرازى – تحمل آثار الخلاف الحاد بينهم ، يخطئ بعضهم بعضاً ويرد بعضهم على بعض .

وكتب المدارس النحوية والبلاغية ، تكاد تقوم على الجدل بينهم فى أوجه الخلاف ، وكتب النقد الأدبى ، تضع فى ميزان الترجيح بين الكتاب والشعراء ما أُخِذَ عليهم من سقطات لغوية ، وخروج على سنن الفصحاء فى الأساليب !

ويكفى لبيان صرامة هذه الرقابة اللغوية ، من حراس الفصحى فى تتبع عثرات الألسنة وسقطات الأقلام ؛ أن نجد من اللغويين أنفسهم مَن

---

(١) من باب ٣٥ : ٤٠ فى طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٥٦ تحقيق د . عبد العزيز مطر .

تصدوا للرد عليهم ، وألفوا كتباً فى تصحيح ما عدوه خطأ ، أو التماس وجه للصواب فيه .

فكتاب الحريرى (درة الغواص فى أوهام الخواص) رد عليه ابن الخشاب وابن برى ، وألف «الشهاب الخفاجى» — وهو من معاصرى الحريرى ، ت٥١٦ هـ — كتاب (شرح درة الغواص)[١] لبيان أوهام الحريرى فى أوهام الخواص !

ثم جاء العلامة « الألوسى » ، فأخذ فى كتابه (كشف الطرة عن الدرة) موقفاً وسطاً بين الحريرى والشهاب الخفاجى : أقر من درة الغواص بعض أوهام الخواص ، وسلم ببعض ما ردّه الخفاجى منها فى شرح الدرة .

وما ذكره « ابن مكى الصقلى» فى (تثقيف اللسان) من أغلاط الخواص ، رد عليه « ابن هشام اللخمى » ، — وهو قريب من عصره ، ت٥٧٧ هـ — فى كتابه (المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان)[٢] .

ونوشك أن نقول إن مدار أكثر الخلاف بينهم ، كان على القواعد التى وضعها النحاة أكثر مما كان على سنن الفصحى ذاتها ، كما يبدو بوضوح فى كتاب (الإنصاف فى مسائل الخلاف) لابن الأنبارى و (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبى .

* * *

وما من شك فى أن تشدد اللغويين فى رقابتهم ، كان ضرورياً لكبح التهاون فى الفصحى أو الخروج على سننها ، وقد كانوا يمثلون التيار المحافظ الذى لم يكن منه بُدٌّ لكى يحمى أصالة العربية .

فى الوقت الذى مضت اللغة فيه تساير الزمن وتستجيب لتجدد الحياة واتساع آفاقها ، كى تبقى ولا تموت .

---

(١) ط الجوائب ، سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢) مخطوط بمكتبة الإسكوريال ، ومنه بمصر نسختان مصورتان بعنوان (الرد على كتابى لحن العامة للزبيدى ، وتثقيف اللسان) .

وما كان يبدو من صدام بين التيارين ، هو الذى حفظ التوازن لهذه العربية الفصحى التى حققت وجودها اللغوى متصلة بأصيلها النقى العريق ، ومتجددة مع الحياة التى لا تسمح بالبقاء لما لا يصلح للبقاء .

* * *

ومن ناحية أخرى . أخذت لغة الحياة والتعامل حريتها فى الحركة والتوسع . فتخلت عن كثير من قيود الإعراب مستغنية عنها بنسق التركيب ودلالة السياق . وطوعت الصيغ لمواجهة عوامل صوتية جبرية فرضتها طبيعة الأجهزة الصوتية لشعوب تفاوتت مسالكها اللغوية وميراثها فى الأداء . مع اتصالها فى الوقت نفسه بالفصحى العليا لغة القرآن الكريم . ومن ثم أتيح للعربية هذا الانتشار الواسع وطاعت بها ألسنة الشعوب المتعربة مستغنية عن الدرس والتلقين .

فلنُلْقِ على العربية ولهجاتها الإقليمية نظرة متأنية تزيد القضية وضوحاً وبياناً .

العربيّة ولهجاتها الإقليميّة

أخذت الشعوب المتعربة لسان عربيّها عن القبائل العربية المختلفة التى خالطتها، وكان للعوامل الإقليمية الخاصة أثرها فى كل اللهجات الشعبية المحلية .

لكنها ظلت مع ذلك تتصل بالفصحى العليا فى القرآن الكريم الذى حفظ لجماهير الشعب سليقتها اللغوية ، وأرهف ذوقها ببيانه المعجز .

من أين أخذت الشعوب المتعربة لغتها الجديدة ، فى البوادى والحضر والريف والجبال ؟

الطبقات المتعلمة ، هى التى التقت فى الفصحى لغةَ دراسة وتأليف ، أما عامة الشعوب المتعربة فأخذت اللغة عن القبائل العربية التى نزحت إلى الأقطار المفتوحة فى هجرات جماعية ، واستقرت فيها وخالطت أهلها وامتزجت بهم .

ولم يكن استقرار الهجرات العربية فى مواطنها الجديدة يمضى فى عشوائية مرتجلة ، بل كان يخضع لنظام دقيق يحدد لكل جماعة خطتها حيث تنزل وتقيم ، كما كان يحدد للكتائب المرابطة منازلَ ارتباعها داخلَ البلاد .

والتوزيع والتخطيط ، قاما أساساً على نظام القبيلة ، وهو المبدأ الذى استقر عليه الوضع من بداية الفتح . فى مصر مثلا نقرأ فى (النجوم الزاهرة)[1] أن عمرو بن العاص لما بنى الفسطاط تجمع أبناء القبائل — كل قبيلة على حدة — وراحت تتنافس على اختيار مواضعها فى المدينة الجديدة . فبادر « عمرو » وعين أربعة من كبار الصحابة ، من قبائل مختلفة ، مشرفين على عملية توزيع القبائل على منازلها « فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل » .

وكذلك فى مرتبع الجنود المرابطين ، كان الجنود من كل قبيلة يخرجون فى الربيع إلى منازل معينة حُددت لهم ، على ماذكر « ابن عبد الحكم » فى (فتوح مصر)[2] .

ثم إن القبائل كانت تتنافس على بناء مساجد لها ، إلى جانب المسجد الجامع . وفى (خطط المقريزى) أن عمر بن الخطاب لما افتتح البلدان كتب إلى ولاة البصرة والكوفة ومصر ، يأمر كلا منهم « أن يتخذ مسجداً للجماعة ، وتتخذ القبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة » .

وكان لكل قبيلة عريفها ، يشرف على أمورها العامة . ونقرأ فى كتاب (القضاة

---

(١) لأبى المحاسن ، ابن تغرى بردى : ١ / ٦٥ ط دار الكتب المصرية .

(٢) ذكر مرتبع الجند — ص ١٣٩ .

والولاة ، للكندى) أن القاضى عبد الرحمن بن معاوية بن خديج — ت ٨٦هـ — جعل أموال اليتامى على أيدى عرفاء القبائل ، وجعلهم مسئولين عنها .

وليس ههنا مجال الحديث المفصل عن هذا الوضع وآثاره السياسية والاجتماعية [١] ، وإنما الذى يعنينا هو أن ندرك أثر هذا الوضع على حركة التعرب ، من حيث أخذت الشعوب المتعربة لسان عربيتها من مئات القبائل الموزعة على الأقطار الإسلامية . والقبائل قد هاجرت بلغاتها إلى منازلها الجديدة فكان أن اختلفت اللهجات المحلية للمتعربين باختلاف لغات القبائل التى نزلت بينهم وأصهرت إليهم وامتزجت بهم .

وأكثر ما بين لهجات العربية من اختلاف ، يرجع أصلا إلى اختلاف لهجات القبائل ، ثم كانت هناك عوامل إقليمية لا يمكن تجاهلها ، تركت آثارها فى لهجات الشعوب المتعربة ، على النطاق الواسع من قلب الشرق الآسيوى إلى أقصى المغرب الإفريقى والأندلس ، فأخذت حريتها فى التعبير بلسانها العربى على سجيتها دون أن تلتزم قيود الفصحى فى الإعراب والاشتقاق والتصريف . وكل هذه اللهجات تطور مستحدث تعربت فيه ألسنة العامة بقدر ما واتتها طبيعتها وأسعفتها حناجرها ، وتطلبت حياتها .

غير أنه لاينبغى أن يغيب عن بالنا ، أنه بقدر ما كانت هناك عوامل إقليمية تختلف بها لهجات الشعوب العربية ، كان هناك عامل موحد مع كل هاتيك المؤثرات المحلية ، يحقق نوعاً من الاتصال بين الفصحى ولهجاتها من ناحية ، وبين اللهجات المختلفة ، بعضها ببعض ، من ناحية أخرى :

كان هناك القرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً ، على اختلاف لهجاتهم وأقاليمهم وتفاوت بيئاتهم المادية والمعنوية ، يتلونه فى صلواتهم ، ويسمعونه يتلى عليهم فى المساجد والبيوت ، فى الحواضر والثغور وفى نجوع البوادى وقرى الريف والجبال ، فيلتقون فيه على الفصحى فى أنقى أصالتها وأعلى بيانها .

---

(١) تقرأ هذا بتفصيل فى كتاب (القبائل العربية فى مصر) للدكتور عبد الله خورشيد البرى .

وما من أثر إقليمى استطاع أن يعطل نفوذ هذا الكتاب الجامع الموحد ، أو يحول دون اتصال لهجة محلية ، مهما تكن عزلتها ـ بكتاب العربية الأكبر .

لا يقتصر الأمر فى هذا الاتصال على الألفاظ الدينية التى دخلت فى كل اللهجات الشعبية ، وإنما يمتد إلى إلف المتعربين للغة القرآن لطول ما يتلونه أو يتلى عليهم ، بحيث صار فى استطاعة أى متعرب ـ من العراق إلى المغرب ـ أن يسمع اللغة الفصحى فى المحافل والمنابر والمواسم الدينية ، فلا يحس غربة عنها أو جفوة لها ..

والأمر هنا أيضاً لا يقتصر على المتعلمين ممن تفصحوا بالعربية ، بل يتجاوزهم إلى عامة الأمة ، فى جماهير الأميين الذى لم تنقطع صلتهم قط بالفصحى العليا ـ القرآن الكريم ـ قمة الفصحى ومعجزة البيان .

وإذا كان اللغويون قد حاولوا تتبع ما فى عاميات العربية من لحن ، كما فعل الكسائى ، وأبو بكر الزبيدى فى (لحن العامة) ، وابن مكى الصقلى فى بعض أبواب من كتابه (تثقيف اللسان) ، فالمحاولة فى ذاتها تشهد بأن عاميات العربية كانت مرجوة لديهم لأن تخضع للرقابة فلا تخرج على سنن الفصحى [1] .

والذى سبقت الإشارة إليه من مآخذ علماء اللغة على الخواص ، يجب أن يوضع فى التقدير حين تلقانا كتب القدامى فى لحن العامة .

ولم يخل الميدان كذلك من محاولات للرد على اللغويين فيما عدوه من أغلاط العامة وأوهامهم ـ كالذى فى كتاب ابن هشام اللخمى (الرد على الزبيدى فى لحن العوام) وكتاب (المدخل إلى تقويم اللسان) فى الرد على ابن مكى الصقلى . وابن مكى نفسه ـ قد ساق فى كتابه أبواباً فى لحن العامة والخاصة ، كما عقد أبواباً أخرى لافتة إلى :

" ما تنكره الخاصة على العامة ، وليس بمنكر " .

---

(١) نشر الأستاذ المحقق حسن حسنى عبد الوهاب ـ عام ١٩٥٣ رسالة لمؤلف تونسى مجهول من القرن التاسع الهجرى ، عنوانها : (الجمانة فى إزالة الرطانة) المعهد الفرنسى بالقاهرة .

" ما خالفت فيه العامةُ الخاصةَ ، وجميعهم على غلط" .

" ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحَهما" .

" ما العامة فيه على الصواب ، والخاصة على الخطأ" .

كما ظهرت محاولات لرد العاميات إلى أصولٍ من اللهجات العربية ، أذكر منها فى لغة مصر مثلا :

(رفع الإصر عن كلام أهل مصر) ليوسف المغربى . وقد اختصره ابن أبى السرور الصديق الشافعى ـ ت ١٠٨٧ هـ ـ فى كتابه :

(القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مِصر من لغات العرب)[١].

وتابع المحاولةَ ، فى الألفاظ والبلاغة والأمثال ، الأستاذ سليمان محمد سليمان فى كتابه (العامية فى ثياب الفصحى)[٢] الذى يقدم أدلة من الشواهد والنصوص ، على أن كثيراً مما يبدو لنا من أخطاء العامية المصرية ، يرجع فى الغالب إلى اختلاف فصحى قريش عن لغات القبائل العربية التى أخذ منها المصريون فى مرحلة التعرب ، لسانَ عربيتهم .

كما نجد فيما قدمه « ابن مكى الصقلى » مما يخطئ فيه الخاصةُ ، والعامةُ على صواب ، شاهداً على أن جماهير العامة سَلِمَتْ لهم إلى حد ما ، سليقتهم اللغوية بفضل اتصالهم بالقرآن الكريم ، وإن لم يأخذوا العربية تلقيناً وصنعة .

ويبدو من دراسة اللهجات المحلية للعربية ، أنها فيما مارست من حرية التطويع والتصرف ، لم تُترك لفوضى عشوائية . بل كانت هذه اللهجات من حيث تدرى أو لا تدرى ، حريصة بقدر الإمكان على ألا تخرج عن العربية الأم ، وقد وجدت فرصتها فى اختلاف لهجات القبائل العربية الوافدة إليها ، فمارست نوعاً من الاختيار التلقائى لما يناسبها من تلك اللهجات .

* * *

---

(١) نشرته وزارة الثقافة المصرية فى سلسلة (تراثنا) تحقيق السيد إبراهيم سالم .

(٢) مطبعة الفكرة بالقاهرة ، ١٩٣٩ .

خلاصة ما ألفت إليه فى هذه المحاضرة عن العربية فى أقطارها الجديدة . هو أن الشعوب المتعربة أخذت لسان عربيتها من لغات القبائل المختلفة التى خالطتها ، وكان للعوامل الإقليمية الخاصة أثرها فى كل لهجة من اللهجات المحلية ، لكن القرآن الكريم كان يجمع هذا الشتات المتفرق عند لغته العليا التى مكنت للفصحى من أسماع هؤلاء المتعربين وألسنتهم ، وأعطتهم العربيةَ سليقة لغوية مرهفة الحس .

ولم تحل اللهجات الشعبية دون فهم العامة لما يسمعون من نصوص الفصحى فالجماهير التى تصلى الجمعة فى المساجد الإسلامية على الساحة الكبرى ، كانت تفهم خُطب الأئمة والوعاظ دون شرح ، وقادة الجيوش فى المعارك الإسلامية كانوا يخطبون فى جنودهم باللغة الفصحى . وشعراء الحروب الصليبية وخطباؤها ، ألهبوا وجدان الجماهير بقصائدهم وخطبهم بالفصحى ؛ ودعاة المذاهب والفرق كانوا يتصلون مباشرة بالعامة . ويؤثرون فيهم بالكلمة ، وما كانوا يتكلمون إلا باللغة العربية المبسطة .

* * *

ومهما تختلف اللهجات المحلية ، فقد بقيت العربية الفصحى اللغةَ العالية المشتركة . وقد كانت هناك رقابة شديدة صارمة لحمايتها . لكنها لم تتوقف لحظة عن الحركة والنمو فى عصور نهضتها ، ولم تجمد عند قديمها معاندة للتطور ، بل استجابت لدواعى الحياة فكانت لسانَ الأمة فى الدولة الإسلامية الكبرى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب . ولغةَ فكرها الحى الناضج وكتاب علومها الأصيلة والمستحدثة ، وأداة اتصالها بقديم التراث الإنسانى . كما كانت أداة اتصال الغرب بالحضاره الإسلامية التى استوعبت ثمار العلوم والمعارف من أقدم العصور إلى فجر عصر النهضة والإحياء . ولو صح ما يقال عن جمودها ، لاضمحلت وماتت بحكم قوانين الحياة وسنن الاجتماع اللغوى .